دولة لا تقهر. ولهذا فان عدم توقع المرور بمراحل مؤدية الى الهدف الاستراتيجي الذي هو دولة ديمقراطية على كامل فلسطين، يكون أمراً من قبيل الوهم والخيال.

«وبالرغم من واقعية تقرير القدومي وصفائه ــ وخاصة في الجزء المتعلق منه بالدويلة ــ فانه اصطدم بمعارضة حادة داخل الأجهزة القيادية في فتح. فلم تكن لدينا حينذاك قواعد شعبية على قدر من الاتساع تكفي لعرض الوثيقة على الأطر والكوادر الوسطى في الحركة، فضلاً عن فتح نقاش عام حول موضوعها. وعلى هذا فقد قررنا إحالة تقرير القدومي الى المحفوظات بانتظار مجيء أيام أفضل»(٤٣).

ما هي أسباب هذا التبدل؟ لا ريب أنها كثيرة ومتشعبة ولا سبيل إلى سبرها جميعاً.

يكمن السبب الأول في الرغبة بتحاشي المجابهة المباشرة مع النظام الهاشمي غداة انتهاء الحرب عن طريق المطالبة بالسيادة على منطقة كان قد ضمّها الى الأردن في عام ١٩٤٨.

والسبب الثاني، ان الهدف بحد ذاته لا يبدو مضمون التحقّق، خصوصاً وان شرائح لا يمكن تجاهلها من الفلسطينيين في الضفة الغربية لا يحملون لواء منظمة التحرير. من الذي سيتولى إدارة الدولة العتيدة؟ المملكة الهاشمية بالطبع؛ ومنظمة التحرير لا يمكنها القبول بهذا الحل. ولعل هذه الخشية لا بد أن يكون لها دور في الرفض المطلق للقرار رقم ٢٤٢. وحتى تسقط هذه العقبة ينبغي ان تفرض منظمة التحرير نفسها بصفتها وأن تقطع كل جدل حول تمثيلها للشعب الفلسطيني بأسره. ناهيك عن الانقسامات داخل منظمة التحرير بالذات، وداخل منظمات المقاومة الفلسطينية. وكان على حركة فتح، في المجلس الوطني الفلسطيني الرابع، ان لا تواجه قادة منظمة التحرير القدامى فحسب، وإنما أيضاً الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي تلعب دوراً نشطاً، وكذلك النزعات القومية الوحدوية المعارضة «للاقليمية».

وأخيراً فقد سرت في فترة ١٩٦٧ــ١٩٦٨ بعض الشائعات كما برزت بعض المواقف لدى القادة الاسرائيليين ممّا يحمل على الاعتقاد بأنهم لا يعارضون قيام «كيان فلسطيني». وللوصول إلى تنفيذ الفكرة، فلديهم عدد من «الشناكل» التي يعتمدون عليها في الضفة الغربية. وهذا ممّا يزيد كثيراً في درجة الحذر لدى حركة فتح. (وسنخصص دراسة لاحقة تتناول بالتفصيل رفض منظمة التحرير الفلسطينية للدولة في الضفة الغربية وغزة، وموقف مختلف التيارات في المناطق المحتلة ازاء هذه المسألة).

النقاش بشأن «المستوطنين» اليهود

أما وقد وصلنا إلى هذه النقطة فيجدر ان نعود إلى الشقّ الثاني من تحديد الدولة الديمقراطية، ويتعلق «بالجالية» اليهودية أو «المستوطنين» اليهود. وكانت هذه المسألة قد نوقشت في مرحلة ما قبل ١٩٤٨. ويركز «آن ليش» على أن انتفاضة ١٩٣٦ الفلسطينية لم تكن تهدف الى طرد الطائفة اليهودية، بل إلى إفهامها بأنها جزء من المجموع